هل اللهجة الكويتية متناقضة؟

(قام يقعد – قاعد أمشي)

بقلم : يوسف محمد المحميد

رئيس قسم اللغة العربية في ثانوية فهد السالم

كنت -وما أزال- أطمح إلى لقاء مؤلفي النكات، وكتابها الأوائل الذين ضـاعت حقوق إبداعهم بين الجموع الغفيرة من متداولي النكات في وسـائل التواصـل، أطمح إلى لقائهم لأنهم في نظري أصـحاب عقول شـديدة الحساسـية في رصـد الظواهر التي نمر عليها دون انتباه، فهم يمرون على الظواهر ليرصـدوا غرابتها أو تناقضـاتها، ويكشـفون ذلك في صـورة فكاهية تضـمن لملاحظاتهم مسـاحة كبيرة من الانتشـار تعجز عنها كبريات المؤسسات العلمية حول العالم، فهم عباقرة في الرصد، ومبدعون في النشر، وحاجة المجتمع إليهم أكبر من حاجته لبعض راكبي أمواج السياسة.

وكم أتمنى لقاء مؤلفي النكات حول اللغة، فهم لسانيون أكثر من معظم المتخصصين في اللغة، إذ إنهم يمتلكون أذناً واعية ترصـد الظواهر اللغوية بحسـاسـية عالية تشـابه تلك التي امتلكها النحاة الأوائل أمثال شـــيخنا الخليل بن أحمد وتلميذه ســـيبويه، وأعتقد أن مؤلفي النكات اللغوية لو أحكموا مناهج البحث اللغوي لكانوا في مصـاف اللسـانيين العظماء أمثال سـوسـير وتشـومسـكي، بل إن نتاجهم قد يفوق نتاج أولئك لما يتمتعون به من ظرافة وقدرة فائقة على صـــب الأفكار في قوالب تدهش العقل وتخلق السـؤال فيه، وترسـم الابتسـامة على وجوه اعتادت العبوس، وليس العلم سـوى تفاعلٍ بين العقل والقلب، محكومٍ بمنهج علمي!.

من بين النكات اللغوية، اســتوقفتني نكتة قام مبدعها برصــد حالات من التناقض في اللهجة الكويتية، وتمثل التناقض في توالي فعلين متناقضــين من قبيل قول الكويتي: **"قعدت أمشــي"**، أو قوله: **"فلان قام يقعد"**، ووجه التناقض واضــحٌ بَيِّنٌ، فالفعل (قام) ضــد الفعل (يقعد) من حيث الدلالة على الحدث والزمن، فـــ"قام" فعلٌ ماضٍ و"يقعد" فعلٌ مضـارع، وهما يشـيران إلى حدثين متناقضـين، وكذلك الحال في توالي الفعل الماضــي (قعدت) والفعل المضــارع (أمشــي)، فهل عقول الكويتيين تقبل الجمع بين النقيضين؟!، أو أن وراء الأكمة ما وراءها؟.

ومن المظاهر الأخرى التي رصــدها صــاحب النكتة في اللهجة الكويتية تكرار فعل واحد ولكن في زمنين مختلفين في قول الكويتي: **"راح أروح"**، فالفعل الأول ماضٍ، والفعل الثاني مضــارع، فلماذا هذا التكرار؟، ألم يكن من السهل أن يقول: "أروح"، دون زيادة فعل ماضٍ؟.

ولتحليل هذه التراكيب الغريبة لا بد من الاستعانة بالمعجم لنرى إن كان العرب الأوائل استعملوا تلك الأفعال بالصورة التي نستعملها في لهجتنا، وسنبحث في معجم لسان العرب لابن منظور عن الأفعال (قام – قعد – راح) ومواد هذه الأفعال من المواد الغنية بالمعاني ، لذا سأقتصر على المعاني المفيدة في تحليلنا على النحو التالي:

١- الفعل "قام": قال ابن منظور بعد إسهاب طويل: **"وقامت المرأَة تَنُوح أَي جعَلت تنوح، وقد يُعْنى به ضدّ القُعود لأَن أكثر نوائح العرب قِيامٌ؛ قال لبيد: "قُوما تَجُوبانِ مَعَ الأَنْواح" وقوله:**

يَوْمُ أَدِيمِ بَقَّةَ الشَّرِيمِ أَفضَلُ من يومِ احْلِقِي وقُومي

إنما أَراد الشدّة فكنى عنه باحْلِقي وقومي، لأَن المرأَة إذا مات حَمِيمها أوزوجها أو قُتل حلَقَت رأْسها وقامَت تَنُوح عليه" ، ونص ابن منظور يكشف عن وجود اختلاف في تعيين دلالة الفعل "قامت" في عبارة "قامت المرأة تنوح" فمن العلماء من رأى أن "قامت" تأتي بمعنى "جعلت" وهي فعل من أفعال الشروع مثل (أنشأ – طفق – شرع) أي إن "قامت" فعل ناقص لا يرفع فاعلاً بل يؤدي وظيفة نحوية مخصصة نفصّلها لاحقاً، ومن العلماء من رأى أن الفعل "قامت" في تلك العبارة له دلالة معجمية على حدث وهو القيام (ضد القعود).

٢- الفعل "قعد": قال ابن منظور : **"تقول: قَعَدَ فلان يَشْتُمُني، بمعنى طَفِقَ وجَعَل"**، ثم أتى بشاهد شعري على هذا الاستخدام، ونلاحظ التشابه في استخدام الفعل "قعد" والفعل "قام" على أنهما فعلان من أفعال الشروع الناقصة، ثم يذكر ابن منظور استخداماً آخر للفعل "قعد" فقال ما نصه: **"ثَوْبَكَ، لا تَقْعُدُ تَطِيرُبه الريحُ، أَي لا تَصِيرُالريحُ طائرةً به"** وهنا نرى كيف أدى الفعل "تقعد" وظيفة الفعل "صار" وهو من أخوات كان التي يعتبرها النحاة أفعالاً ناقصة.

٣- الفعل "راح": لم أجد له استعمالاً في لسان العرب كاستعمال العرب الأوائل أخويه (قام – قعد) على أنهما أفعال ناقصة من أفعال الشروع، لكن النحاة تطرقوا إليه في معرض حديثهم عن أخوات "كان"، فعدَّه بعضهم فعلاً ناقصاً بمعنى "صار"، واستشهدوا على ذلك بالحديث النبوي: **"لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً"**، لكن فريقاً كبيراً من النحاة ردوا ذلك، واعتبروا الاسم المنصوب حالاً لفاعلها لا خبراً لها، فهي عندهم فعلٌ تامٌّ يرفع فاعلاً، ومعنى الرّواح عندهم السير بالعشيّ وهو خلاف السير في الغداة.

وقد وجدت في معجم اللغة العربية المعاصـرة للمرحوم الدكتور أحمد مختار عمر –طيب الله ثراه- معنىً للفعل "راح" بناه على استخدام العرب المعاصرين، حيث قال: **"راح يفعَلُ كذا : أخذ في الفعل وشرع فيه :- راح يغني"** وحسب هذا الاستخدام تصبح "راح" فعلاً ناقصاً من أفعال الشروع.

هذا استخدام العرب الأوائل والمعاصرين لتلك الأفعال على مستوى الفصحى، والآن نستعرض استعمالها في لهجتنا فنقول:-

١. عندما يُسأل الكويتي : ماذا تفعل الآن؟، يجيب :**"قام أمشي "** أو يقول : **"قاعد أمشي"**:-

(قاعد وقام) في التعبيرَين السابقَين يشبهان في استخدامهما استخدام العرب الأوائل، فالفعل "قام" ناقص يؤدي معنى الشروع بالفعل في الزمن الحالي، و"قاعد" اسم فاعل من الفعل "قعد" الناقص ويعمل عمله، وهذا يعني أننا نستخدم (قام وقعد) لنخلص الفعل المضارع من الدلالة على المستقبل، ونمحضه لمعنى الحاضر (الآن)، وقد قَرَّر العلماء اختصاص أفعال الشروع بالزمن الحاضر، ولذا منعوا اقتران خبرها بـ"أن" المصدرية، لأن دخول "أن" على الفعل المضارع يخصص زمنه للمستقبل.

٢. عندما يُسأَل: ماذا كنت تفعل أثناء اتصالي بك؟، يجيب: **"كنت قاعد أمشي"** أو يقول **"كنت قام أمشي"**:

في الجوابين وردت (قام – قاعد) لإحداث تركيبٍ نحوي يشبه التركيب الإنجليزي المسمى "الماضي المستمر" Past continuous ، أي إن فعل المشي كان مستمراً طيلة زمن الاتصال، وفي هذا نلمس معنى الشروع في زمن ماضٍ محدد، وهذا أمر معروف في استخدام أفعال الشروع في حكاية حدث ماضٍ.

٣. عندما يقول الكويتي: **"راح أروح البيت"** أو **"راح أدرس"**:

نجد أنه يريد وقوع فعل "الرواح/الدراسة" في المستقبل، فالفعل الماضي "راح" خالف في استخدامنا جميع استخدامات العرب الأوائل والمعاصرين، فهو عند الأوائل بمعنى "صار" –رغم الخلاف فيه-، وهو عند المعاصرين بمعنى "شرع"، لكنه في اللهجة يأتي بمعنى "سوف" وهي حرف تنفيس (استقبال) يحصر زمن الفعل المضارع في المستقبل.

وقد وجدت نفسي مَيّالة إلى القول بأن "راح" في هذا الاستخدام حرف لا فعل، لكني وجدتها تقبل علامات الأفعال كدخول تاء التأنيث وتاء الفاعل وواو الجماعة، فتقول : (رحت/ راحتْ / راحوا)، ورغم أني أرى خلوها من معنى الحدث، وتمحضها للدلالة على الزمن، إلا أن هذا الرأي لم يثنِ النحويين القائلين بخلو الأفعال الناسخة من معنى الحدث من القول بفعليتها، إذ تقبل معظم العلامات المميزة للأفعال

(كضمائر الرفع وتاء التأنيث واقترانها بـــ"قد")، علماً بأن من كبار النحويين من رد على خلو الأفعال الناقصة من معنى الحدث بحجج يصعب نقضها، وأثبتوا لها معنى الحدث.

ولتفسير ظاهرة خروج الأفعال السابقة عن معناها المعجمي، وتأديتها وظائف نحوية خاصة، سأستعين بظاهرة لغوية يسميها لغويو الغرب "Grammaticalization" وترجمتها الباحثة ثريا السكري بمصطلح **(الإنحاء)**، وعرَّفتْها في كتابها **"ظاهرة الإنحاء في اللغة العربية – الفعل الناقص نموذجا"** بقولها: **"أما الظاهرة المقصودة بهذه التسمية فتتمثل في نوع من التغيير اللغوي الذي يتم بمرور الزمن وفي سياقات لسانية خاصة تصبح بمقتضاه وحدةٌ معجميةٌ ملأى وحدةً نحويةً"**.

ويمكن أن نقول بأن الإنحاء يُغيّر دلالة الكلمات ويعطيها وظيفةً نحوية في التراكيب اللغوية، فالاسم أو الفعل لهما دلالات في المعجم، لكنهما بعد خضوعهما للإنحاء تسقط عنهما تلك الدلالات المعجمية، ويكتسبان وظيفة نحويةً في التركيب كما تفعل الحروف.

ولتقريب فكرة الوظيفة النحوية نستعين بالفعل المضارع، فقد قرر النحاة أن الفعل هو ما دل على حدثٍ مقروناً بزمن، ثم ذهبوا إلى أن الفعل المضارع يحتمل في ذاته زمنين اثنين لوقوع الحدث، الزمن الحاضر (الحال) والزمن المستقبل، فعندما تقول : "أذهب"، فهذا قد يشير إلى وقوع حدث "الذهاب" الآن، وقد يدل على وقوعه في المستقبل، وقد وضع العرب بعض الحروف التي تخلص دلالة الفعل المضارع لأحد الزمنين، فالحروف مثل : (السين وسوف ولن) تُخْلِصُ دلالة الفعل المضارع للزمن المستقبل، وحرفا النفي "ما و لا" يخلصان دلالة المضارع للحال (الآن) كما يذهب كثير من النحاة، وتتدخل بعض الحروف لتنفي عن الفعل المضارع دلالتي الحال والاستقبال، وتخلص دلالته للماضي، مثل حرف النفي الجازم "لم" الذي يدخل على الفعل المضارع فيقلب دلالته إلى الماضي.

إذا اتضح ذلك نقول إن العرب الأوائل أخضعوا الأفعال (قام وقعد وراح) لظاهرة الإنحاء، فصيّرُوها أفعالاً ناقصة (للشروع أو لأداء معنى "صار")، واستعانوا بها للتعبير عن أغراض خاصة، واللهجات العربية أقرَّت إنحاء العرب الأوائل، وأضافت لمساتها الخاصة، فالعرب المعاصرون أَنْحَوا الفعل "راح" على مستويين، ففي مستوى الفصحى جعلوه فعل شروع، وفي مستوى اللهجة عاملوه معاملة "سوف".

ويمكن دراسة السلوك اللغوي للكويتي للتعرف على تطور الحروف، فقد ذهب بعض النحاة إلى أن لا فرق بين (السين وسوف) من حيث الدلالة على الاستقبال، بمعنى أنهما مترادفتان ترادفاً تاماً، وقد تكون السين ابنة سوف بعد حذف الواو والفاء، وهذا ما نراه في تعامل الكويتيين مع كلمة "قاعد" حيث شاع استخدامها بعد حذف الدال، فيقول الكويتي: "قاع أمشي"، ويزداد الحذف ليطال العين فيقول البعض : "قا أمشي"، وبهذا فسر الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه "التطور اللغوي" استخدام اللهجة

المصـرية لحرف "الحاء" للتنفيس في قولهم "حأعمل" ، إذ ذهب إلى أنها نتاج حذف الراء والألف من الفعل "راح" المستخدم في اللهجة المصرية –وكثير من اللهجات العربية الاخرى- بنفس الطريقة التي يستخدم بها في اللهجة الكويتية، وأما قولهم "هأعمل" فالهاء فيه مقلوبة عن الحاء.

قد تكون ظاهرة الإنحاء ضـيقة في اللغة الفصـحى (الأفعال الناقصـة)، لكنها في اللهجات العربية شـائعة، بل إنها في تطور مسـتمر يوجب على الباحثين مواكبته بالبحث والدراسـة والتحليل للتعرف على قوانين حركة هذه الظاهرة، وفي ذلك فائدة عظيمة تنعكس على فهمنا للغة وحركة تطورها عبر الزمن.